رفع الحرج.. في الشريعة الإسلامية

اليسر ورفع الحرج أصل من أصول الشريعة الإسلامية، فحيثما يكون العسر يكون اليسر، وأينما يكون الضيق يكون معه رفع الحرج، والقاعدة المطردة في الشريعة الإسلامية هي قوله تعالى:○.. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر..□ سورة البقرة/١٨٥.

فاليسر إرادة إلهية، وأما العسر فإرادة بشرية !

هذا ما استقرت عليه الشريعة الإسلامية الغراء في قواعدها الفقهية، فالضيق فيها يوجب التيسير، فحين تضيق البدائل أمام المسلم، وتقل الاختيارات بين يديه تأتي الرخص، والله تعالى من رحمته بعباده، ورأفته بهم يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

والعجيب في الأمر أن الآية التي تتحدث عن اليسر باعتباره إرادة إلهية جاءت في سورة البقرة، وفي الآيات التي تتحدث عن الصوم باعتباره عزيمة من العزائم، وكيف شدد الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) على صيامه، وحذر أشد التحذير عن الإفطار فيه بغير عذر شرعي، ولهذا فبعد أن تحدثت الآيات عن أصحاب الأعذار الشرعية في قوله تعالى:○ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون□ سورة البقرة/١٨٥.

في نص بياني معجز سجَّل الحق تبارك وتعالى تيسيره على الصائمين حين تتغير أحوالهم من الصحة إلى المرض، ومن الإقامة الى السفر، فأوجب عليهم الفطر وقضاء ما أفطروه من أيام في وقت آخر.

وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين الذين سارعوا إلى الاستجابة الى أمره ونهيه، وقالوا في إخبات ويقين:○..سمعنا وأطعنا..□.

وكما قال سبحانه وتعالى في آيات الصوم:○.. يريد الله بكم اليسر..□ قال في سورة المائدة عند حديثه عن الطهارة للصلاة عندما لا يتيسر الماء لذلك وإباحته للتيمم، قال جل جلاله:○.. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون□ الآية ٦.

وفي الآيتين من سورة البقرة وسورة المائدة ختم الله تعالى هاتين الآيتين بقوله جل جلاله:○ لعلكم تشكرون□ وذلك لأن المقام هنا مقام الشكر على نعمة التيسير ورفع الحج عن عباده المؤمنين.

والتيسير ورفع الحرج عن المؤمنين ليس مقصورا على أوقات الحرب، وخروج الإنسان عن مألوف عاداته، يقول سبحانه وتعالى:○ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ولرسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفورٌرحيم□ سورة التوبة/٩١. بل يصحبه هذا التيسير ورفع الحرج حتى في حالة السلم، وهي أوقات عادية وليست استثنائية في حياة المسلم، والآية الجليلة تتحدث في بيان واضح وجليل عن تجليات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: الغفور والرحيم، ولأن الله تعالى غفور عظيم المغفرة، فهو يغفر لمن تخلف عن الجهاد للأعذار التي ذكرتها الآية، ولأنه سبحانه رحيم عظيم الرحمة، فهو لم يحرم أصحاب الأعذار من الأجر، لأن الأجر في الإسلام يحسب على النية وإن قصرت قدرات الإنسان المسلم عن تحويل النية إلى عمل ظاهري.

وفي سورة النور التي فرضها الله تعالى على عباده، جعل من تجليات الغفور والرحيم رفع الحرج عن الأعمى، والأعرج، والمريض، ويسر لهم من البدائل في المطعم والمشرب ما يغنيهم، فقال تعالى:○ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون□ الآية ٦١.

بقلم:
عبدالرحمن علي البنفلاح

ومن أجل أن ييسر الله تعالى على المؤمنين، ويرفع الحرج عنهم في معاشهم رسم لهم خريطة غذائية لما يحل لهم ويحرم عليهم، وما يجوز لهم، وما يتجاوز عنه سبحانه عند الإضطرار إليه، قال سبحانه:○ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله ان كنتم إياه تعبدون (١١٤) إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن أضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم (١١٥) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (١١٦) متاع قليل ولهم عذاب أليم (١١٧)□ سورة النحل.

يا له من بيان معجز ومروع في نفس الوقت، لقد بيَّن الحق تبارك وتعالى ثلاث أنواع من الطعام: الحلال الطيب، والحرام الخبيث، وما أجازه الشارع الحكيم عند الإضطرار إليه من دون بغي أو عدوان، أي أن يأخذ منه المسلم على قدر الضرورة، وما يدفع عنه الموت.

وهذه الخريطة الغذائية تجعل الإنسان عموماً، والمسلم على وجه الخصوص في غير حاجة إلى الإفتراء على الله تعالى الكذب، ويحل ما حرمه الله سبحانه، ويحرم ما أحله الله جل جلاله، فقد أغنى الله تعالى عباده بحلاله عن حرامه، وبه سبحانه عمن سواه.

هذه الخريطة الغذائية ينبغي أن يستغني بها المسلم، بل والإنسان عموماً عن غيرها، فهي تتسع لتشمل أحوال الإنسان العادية وغير العادية، وفي هذا من التيسير ورفع الحرج عن المسلم، وعن غيره الكثير.

ولقد ترجم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كل هذا في حديثين اثنين الأول هو في قوله (صلى الله عليه وسلم) (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أستكرهوا عليه)، رواه النووي في المجموع، وهو حديث صحيح.

فهذه حالات ثلاث رفع الله تعالى فيها الحرج عن الأمة، ويسر لها سبل معاشها. وأما الحديث الثاني، فهو قوله (صلى الله عليه وسلم):

« رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق» الراوي علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) والمحدث: الذهبي، وهو حديث صحيح.

فإذا ضممنا هذه الثلاث إلى الثلاث الأولى صار عندنا ست حالات مرفوع الحرج فيها عن المسلم، وهذا يضيق مساحة المسؤولية عليه، وهي حالات ست كثيراً ما يتعرض لها المسلم، وما تبقى بعد ذلك هو القليل الذي يكون المسلم مسؤولاً عنه، وهو نوعان: الصغائر، وهذه تكفرها العبادات، وحسن الأخلاق، والكبائر، وهذه تحتاج إلى التوبة والإنابة والعمل الصالح، ورغم ذلك فإن من رحمة الله تعالى بعباده، ومن شفقة رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأمته أنه جعل شفاعته يوم القيامة لأهل الكبائر من أمته، قال صلى الله عليه وسلم:« انما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» المحدث: الألباني، المصدر: تخريج كتاب السنة، الصفحة ٨٣١.

وكان الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) يقولون: «كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»، وقال: «إني ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا بعد ورجونا» رواه ابن عمر (رضي الله عنهما) ذكره السيوطي في الدر المنثور رقم ٤٧٠/٤، وإسناده صحيح (راجع الموسوعة الحديثية- غوغل).

هذا هو إسلامنا العظيم الرحيم الذي يرفع الحرج عن أتباعه، ويسر لهم من الرخص ما يغنيهم عن افتراء الكذب على الله تعالى، فالمسلم ليس في حاجة إلى ابتداع ما ليس له أصل في الدين، ولسنا من القوم «الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا» الذين قال الله تعالى فيهم: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» سورة البقرة/٧٩.

فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين، ومن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأغنانا بحلاله عن حرامه، وبه سبحانه عمن سواه، ويسر لنا سبل طاعته، ورفع عنا الحرج فيما كلفنا به.

aalbinfalah@gmail.com

لماذا نخاف العولمة؟

بعد أن تعرفنا - من خلال بعض المقالات السابقة- على العولمة وفلسفتها وفكرها ومنبعها، وعرفنا وضع العالم العربي الإسلامي، نجد أنفسنا أمام السؤال الصعب: لماذا نخاف العولمة؟ هل العالم العربي الإسلامي ضعيف لدرجة عدم الرغبة أو الخوف من المواجهة؟ ولا نقصد هنا المواجهة المسلحة وإنما نحن نتحدث عن الإرث والهوية والفكر الثقافي والروحي. وربما يحق لنا أن نتساءل بطريقة أخرى: هل أعددنا أنفسنا للمواجهة؟ وهل نمتلك الفكر والهوية الثقافية حتى نستطيع المواجهة؟ هل فعلاً أعددنا عدتنا وبدأنا نصدر فكرنا وثقافتنا إلى الغرب لنتمكن من هزيمته في عقر داره؟

وحتى لا نلوك الماضي والتاريخ، وإن كان ماضينا الجميل يقول إننا كنا ذات يوم سادة العولمة على الكرة الأرضية والدول المعروفة آنذاك، ولكن كل ذلك انتهى لأسباب كلنا يعلمها.

أما واقع اليوم فإنه يقول إننا أصبحنا في مؤخرة الركب، آسف، أقصد خارج سرب الحضارة الإنسانية، فلم يعد لنا وجود ولم يعد لصوتنا الحق في الوصول إلى الآذان، ولماذا أصبحنا خارج السرب؟ ببساطة لأننا ارتضينا ذلك، ارتضينا هذا الهوان وهذا الذل، وحتى ندلل على ما نقول بالأرقام، وحتى لا نظلم أنفسنا ولا نظلم أحدا دعونا نتدارس الواقع الثقافي والإعلامي - فقط - في الوطن العربي مقارنة بالغرب.

ورد في تقرير منظمة الأمم المتحدة للعلوم والثقافة والتربية (اليونسكو) أن معدل نشر الكتاب في العالم العربي لا يتجاوز نسبة ٧٪، وأن نصيب كل مليون عربي من الكتب لا يتجاوز ثلاثين كتابًا، في مقابل ٥٨٤ كتابا لكل مليون أوروبي، وما لا يقل عن ٢١٢ كتابا لكل مليون أمريكي. وورد في تقرير التنمية البشرية (٢٠٠٣) أن أعداد النسخ المطبوعة من الكتاب العربي في المعدل العام بين ألف إلى ثلاثة آلاف، بينما يبلغ عدد النسخ المطبوعة للكتاب في أوروبا وأمريكا عشرات الآلاف· ويشير نفس التقرير إلى أن الدول العربية مجتمعة أنتجت ٦،٥٠٠ كتاب عام ١٩٩١، بالمقارنة بـ ١٠٢،٠٠٠ كتاب في أمريكا الشمالية، و٤٢،٠٠٠ كتاب في أمريكا اللاتينية والكاريبي.

وتكشف دراسة أخرى أن الأوروبي يقرأ بمعدل ٣٥ كتابًا في السنة، والإسرائيلي ٤٠ كتابًا في السنة، أما العربي فإن ٨٠ شخصًا يقرأون كتابًا واحدًا في السنة.

أي لكي يتم قراءة ٣٥ كتابًا باللغة العربية (في الوطن العربي)، فإننا نحتاج إلى (٢٨٠٠ عربي)، ولكي يتم قراءة ٤٠ كتابًا فإننا نحتاج إلى ٣٢٠٠ عربي. أي أن ثقافة أوروبي واحد يساوي ثقافة ٢٨٠٠ عربي، وأن ثقافة إسرائيلي واحد تساوي ثقافة ٣٢٠٠ عربي.

بقلم:
د. زكريا خنجي

وفي إحصائية أخيرة- بحسب إحصائيات حديثة لليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو)- تشير الأرقام إلى أن معدل القراءة في العالم العربي يبلغ حوالي ست (٦) دقائق في السنة، وينشر في البلدان العربية سنويًا كتاب واحد لكل ربع مليون شخص. وتشير نفس الإحصائيات إلى أن العالم العربي يصدر كتابين مقابل كل مائة (١٠٠) كتاب يصدر في دول أوروبا الغربية، علمًا أن هذه الأخيرة تنشر كل سنة كتابًا لكل خمسة آلاف (٥٠٠٠) شخص كما، أن مدة القراءة في السنة تبلغ ٣٦ ساعة في الغرب.

هل هذا واقع أمة تطالب بالمجد والمعالي؟ هل يمكننا أن نصدر واقعنا الثقافي وفكرنا؟ هل من حقنا -إذن - أن نخاف العولمة؟

أما بالنسبة الى الفضائيات العربية، فإننا نقف أمام أرقام خطيرة، فمثلاً تشير بعض الإحصاءات إلى أن عدد الفضائيات العربية اليوم تجاوز ٤٠٠ فضائية، وكل هذا الفضائيات دشنت خلال خمسة عشر عاما فقط، وهي قفزة قياسية من ناحية الكم، ولكن هل حققت هذه الفضائيات (النوعية) التي يعتبر العالم العربي في أمس الحاجة إليها اليوم؟ وفي المقابل فقد أشارت إحدى الدراسات إلى أن العرب لم ينتجوا سوى ١٠١ مجلة مخصصة للطفل خلال ١٣٠ عاما.

إذن العدد كبير، ليس ذلك فحسب وإنما تطل علينا بين فترة وأخرى قناة جديدة ومعها جملة (بث تجريبي)، فتبث وتجرب من غير أي ضابط، وتعد أنها ستكون القناة المميزة التي ينتظرها العرب من انطلاقة أولِ فضائية عربية. وفعلاً كلها أيام أو شهور حتى تطل تلك القناة للوجود بكم هائل من الجعجعة التي بلا طحين، أفلام عربية وأجنبية مستهلكة، مسلسلات عربية سمجة، برامج فارغة من الهوية والثقافة العربية.

في هذه القنوات ما أن ينتهي الفيلم أو المسلسل، حتى تبدأ أغنية مصورة - طبعًا- يجب أن تكون راقصة، ومن مسلسل إلى أغنية إلى فيلم أجنبي، إلى مذيعة تتمايل أمام الكاميرا، وتتفنن في نطق الكلمات، ولا تأبه إن كان الجو صيفاً أم شتاء فالملابس هي هي، كلها صيفية عارية.

لقد أكدت دراسات اليونسكو أن المحطات العربية تستورد من الدول الأجنبية، وبخاصة الولايات المتحدة ما بين ٤٠ و ٦٠٪ من البرامج والمسلسلات والأفلام، الأمر الذي يؤشر إلى تسيد الثقافة الأمريكية المعولمة الهادفة إلى الوصول إلى المجتمع العربي.

يجد (أمين سعيد عبدالغني) في أطروحته للدكتوراه من جامعة المنصورة أن أداء الفضائيات العربية بعامة يركز أولاً على الترفيه، حيث تمثل البرامج الفنية ما نسبته ٦٠٪ من ساعات البث الفضائية. كما ويلاحظ غياب الفنون العربية مثل السينما العربية الجادة والمسرح والفنون الشعبية والآداب العربية والفنون التشكيلية على شاشات القنوات الفضائية العربية، وكذلك غياب الواقع العربي سياسيا واقتصاديا وثقافيا ودينيا وعلميا عن خريطة القنوات الفضائية العربية، وأنها تعرض ثقافة الفئات العليا من المجتمع العربي.

وفي دراسة أخرى تبين أن برامج المقدمة في الفضائيات العربية تتنوع ما بين نشرات الأخبار التي تستحوذ على ما نسبته ما بين ١١ و٤٠٪ من عدد ساعات البث، وبرامج ثقافية ومنوعات ودراما وغناء وترفيه يعتمد على الإثارة والإغراء الغرائزي. وتبلغ نسبة البرامج المعدة محليا أو عربيا في القنوات الفضائية العربية ما بين ٥٥ و ٨٤٪، بينما تشكل البرامج المستوردة ما بين ١٥ و٤٥٪، وتشكل الفضائيات وفقًا لدراسة إعلامية ٧٣٪ من مصادر الأخبار لدى المشاهد العربي.

إذن، من حقنا أن نخاف العولمة وهذا هو واقعنا.

ليس ذلك فحسب، وإنما قس على ذلك، غلق المراكز البحثية، والقضاء على العقول العربية المفكرة وربما هجرتها إلى دول الغرب، صعود الفئة المطبلة إلى قمة هرم السلطة وإلغاء دور المفكرين، إلغاء الفكر التخطيطي والاستعاضة عنه بفكر الرجل الواحد والرغبة الواحدة، وما إلى ذلك.

واقع مرير، ثم نقول أو نسأل لماذا نخاف العولمة؟ وهل من حقنا أن نخاف العولمة؟

وحتى نكون إيجابيين، ربما يمكننا أن نسأل وأن نختم مقالنا بهذا السؤال: هل يمكننا أن نفعل شيئا أمام هذا الضعف الذي يعيشه العالم العربي الإسلامي وهذه الهجمة الشرسة التي يقوم بها العالم الغربي الرأسمالي؟

نعم يمكننا ذلك، ولكن يجب أن يكون معلوما أنه لا توجد حلول معلبة يمكن أن نستوردها وثم أن نمارسها، وإنما حلولنا تنبع من ذواتنا ومن أوطاننا، وأما بالنسبة الى الطرق فأمامنا العشرات من الطرق والحلول، ولكن يبقى الموضوع الأهم، هو: هل فعلاً نحن - كوطن عربي إسلامي- مازلنا نريد أن نسود؟ هل فعلاً نريد أن نزيل هذا الركام الذي يغطينا مئات السنين؟ هل مللنا من أن نكون خارج الحضارة؟ هل استوعبنا الدروس تلو الدروس؟ أم نحن مازلنا نعيش في أوهام الماضي والتاريخ التليد والعسل والنوم الطويل؟ أترك الإجابة لكم ولشباب هذه الأمة.

zkhunji@hotmail.com

عالم يتغير — فوزية رشيد

اللقاء المصري السعودي

□ لا أحد يعلم أو سيعلم مدة عمق المباحثات بين الرئيس «السيسي» والعاهل السعودي الملك عبدالله اليوم، ولكننا نعلم مدى قوة وصلابة الموقف السعودي ودول خليجية أخرى من ثورة ٣٠ يونيو، وحجم المؤازرة المالية والاقتصادية والاستثمارية السعودية في مصر، وإدراك مدى «الترابط المصيري» بين مصر والخليج العربي، في زمن المخططات والمشاريع والمكائد والإرهاب، الذي تعيشه المنطقة العربية، للوصول إلى تقسيم المقسم وتجزيء المجزأ، وإدخال أكبر عدد من البلاد العربية في فوهة الإرهاب الدولي على يد الأدوات المحلية، ما يجعل من التحالف المصري - الخليجي (ضرورة وجودية) لكلا الطرفين، وهذا يحتاج إلى (تنسيق استراتيجي أمني وعسكري وسياسي كبير) لمواجهة كل التهديدات والتحديات، التي أخذت شكلها الدراماتيكي، منذ أن بدأ ما يسمى الربيع الذي هو ربيع (صهيوني صفوي صليبي) بكل ما تعنيه الكلمات! والغافلون وحدهم لا يعون ما يحدث!

□ في وسط أهوال قلب الحقائق الذي يتم في الجغرافيا العربية، ووسط شراسة المليشيات الإرهابية اليوم وخاصة (داعش) التي أعلنت دولة الخلافة في العراق! رغم كل ما يثار حولها من مواد ووثائق وأخبار، كون زعيمها يهودي وصنيعة «الموساد»، ووسط التمويه الذي تمارسه الولايات المتحدة اليوم، وهي تقصف آليات «داعش» في العراق في الجمعة الماضية (يوم كتابة هذا الموضوع) لكن كما نتوقع أن تقصف بعد ذلك (العشائر الثورية) في العراق بخلط أوراقها مع «داعش»! فإن أصل وجود هذه المليشيات سواء في سوريا أو في العراق، أو أينما تريد التوجه إليه (داعش) بعد ذلك، هو لضرب الدول العربية في الصميم وتمزيقها من الداخل، (لخلق كيانات مليشياوية إرهابية حاكمة) عوضاً عن الدول الوطنية، وخاصة تلك الدول التي تهددها في الخليج، وتعمل على الوصول إليها عبر الحدود!

□ وبقدر ما تعاني الحدود الخليجية المجاورة للعراق من هذا التهديد المباشر، إلى جانب الدول الخليجية الأخرى، فإن الحدود المصرية بدورها تعاني من جملة من التهديدات، سواء على الجانب الصهيوني الإسرائيلي، أو على الحدود مع ليبيا أو مع السودان، أو بسبب تفاعلات الوضع في سوريا والعراق، فالإرهاب ومليشياته التي أصبحت ماركة ما بعد «الربيع الصهيوني» في البلاد العربية سواء المليشيات المدعية للإسلام والسُنة أو المليشيات الإيرانية المتوزعة في الخليج ودول عربية أخرى، هذا الإرهاب هو أداة الاستعمار الجديد، لتمزيق الدول العربية، إلى جانب جرعة المسرحيات الحقوقية والديمقراطية، التي تمارس الضغوط على الدول (لدمقرطة البلاد إما طائفياً وإما من خلال المليشيات الإرهابية والحركات المتطرفة)! وفي خضم هذا تم نزع الدسم عن الثورة الشعبية في سوريا وفي العراق، من خلال خلط أوراقها بأوراق الإرهاب و«داعش» و«حالش» وغيرها!

□ لهذا فإن المباحثات المصرية - السعودية لا بد أن تكون على مستوى الحدث الإقليمي والدولي لتأمين الداخل، وكلا الدولتين «السعودية ومصر» هما اليوم أكبر دولتين تتحملان المسئولية التاريخية في تغيير مجرى الأحداث في المنطقة وتصويب مساراتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه! وخاصة مع هجمة الكيان الصهيوني المحتل على شعب غزة، والقتل اليومي المجاني لأطفالها ونسائها وكهولها بما يشيب له الرأس، فيما الجدل دائر حول حماس!

□ فهناك اليوم أوراق كثيرة تهدد البلدين والخليج وكامل المنطقة العربية، لا بد من تنسيق استراتيجي بين السعودية - الخليج وبين مصر بشأنها، وضمّ الدول المماثلة في الموقف إليها، فالمشروع الكوني الأمريكي، لم يعد مؤامرة أو نظرية المؤامرة، وإنما هو واقع يومي نرى دمويته في كل مكان، وكادت مصر والبحرين والسعودية أن تكون من ضحاياه بعد العراق وسوريا واليمن!

أفق — عبدالله خليفة

انعطاف علماني جذري

تواجه الشعوب العربية عمليات تفتيت متعاظمة، فلم يعد هناك بلد لا يشكو من تفكيك عراه الاجتماعية والسياسية بسبب نشاطات القوى الطائفية الرجعية، وبين مظاهر التوحيد الشعبية الواسعة وعمليات التمزق الحقيقية السارية كالنيران في الهشيم، تواجه هذه الشعوب مجموعة من الانفصامات الجنونية.

لم تستطع القوى السياسية والاجتماعية والفكرية أن تفهم اتجاه العصر ودخلت الرأسماليات الحرة بأشكالٍ فوضوية وتراجعية متمازجة وبناء المجتمعات العلمانية.

لم تعدْ الحكومات قادرةً على تحمل تكاليف القطاعات العامة ودورها الوطني التاريخي المأسوف على شبابه، وهي في تخلصها من بعض أشكاله المفيدة للجمهور، تتمسك ببؤر هذه القطاعات المحورية المغذية للاقتصاديات.

وبين الدور الوطني لهذه القطاعات وأشكال الهدر فيها، تعجزُ الأشكالُ المنتخبة والرقابية من ضبط العملية المركبة هذه، لطفولة العمل الديمقراطي الجديد، وللأشكال المعقدة التي اكتسبتها ملكيات الدول التي أصبحت عملاقة اقتصادية في بلدانها وفي تمددها العالمي.

ما تستطيع أن تقومَ به الأشكالُ الرقابيةُ المنتخبة هو الحفاظ على ثبات أسعار السلع الضرورية للناس، ومراقبة المال العام بمحدودية أدواتها، لكن المال العام كرأسمال يتعرض للعواصف الاقتصادية، عبر الارتباط بعملات تتآكل يوماً بعد يوم، وتعجز هي عن إنتاج عملة عالمية، لأن العملة العالمية هي رمز لمدى متانة الإنتاج وعالميته الكبرى.

والارتباط برأسمالية غربية في حالة أفول تاريخي يؤدي الى ارتفاع الأسعار وتقلص الرأسمال الوطني.

وتأتي الحلول السريعة من الأجهزة الرسمية في هذه الدول بالتوجه الى أبسط القرارات وأكثرها سطحية، وهي رفع الأسعار وتقليص الدعم وغير ذلك من إجراءات تلامس قشور الظاهرة ولا تعالج مضامينها.

في الحالة الخليجية تلعبُ سلعةُ النفط ضمانة لاستقرار مهم لكنها لن تكون دائمة، وهناك الإجراءات الاقتصادية الاجتماعية العميقة وهي المشاركة الأوسع للمواطنين في الإنتاج، وتقليص القوى العاملة الأجنبية وخاصة في الطواقم العليا والمتوسطة، ومشاركة المواطنين الأوسع تتطلب تطوير قوى العمل النسائية وزجها في السياحة والصناعة وإسدال الستار على المجتمع المحافظ، واقتصاد المهارات والثورة العلمية والتقنية وتقليص مظاهر الاستهلاك الحكومي البذخية والبحث عن عملة عالمية مستقرة أو سلة من العملات.

وفي السياسات الخارجية تتطلبُ الأمورُ تعميقَ التعاون السلمي بين الدول العربية وخلق سياسات نشطة بهذا الصدد لتقليصِ أحجام السلع العسكرية واستنزافها للموارد.

إن قوى الصراع المدمر أكبر من قوى السلام، وقوى تشكيل المؤسسات العسكرية المتحدية للمنطقة والعالم، تدمر الموارد كما تفكك هذه البلدان بشكل متواصل في خطط لا عقلانية وغريبة.

مضامين العالم الراهنة الفوارة الصاعدة لتشكيل رأسماليات حرة ضارية، كل منها يسعى الى أقصى الأرباح واحتلال الأسواق وتقليص قوى المنافسين ونشر السلع الأكثر تطوراً والعمالة الأرخص والأكثر تقدماً، تخترقُ العالم العربي بضراوة، حيث الهياكل الاقتصادية والثقافية الضعيفة والتي تتحرك ببطء لفعل شيء مهم.

والأسوأ سيناريوهات الأرهاب والصراعات التمزيقية، وهدم الأسواق - الأوطان المشتركة.

لا بد أن تظل القطاعات العامة التصنيعية قيادية بأشكال ديمقراطية وعلمية، وأن تتطورَ شبكاتُ التوحيد الاقتصادية من أدوات نقل ومُشروعات، وأن تنمو بأشكالٍ جديدة وثرة عمليات التعاون بين الدول العربية والإسلامية، وأن تغدو عواصمُ تنميات مركزية وهي في قلب العالم. لا يمكن فصل السياسات الداخلية الوطنية عن السياسات الخارجية العربية الإسلامية، والتحول الى قوى اقتصادية كبيرة مرهون بفهم كيفية الدخول القوي الى الرأسمالية الحرة بلا آثار العواصف الأولى المدمرة.

تقاليد التوحيد يمكن تطويرها لمجالات التنمية الخلاقة، في المشروعات المشتركة لأثمن سلعة موجودة في العالم، وتطوير البُنى الاجتماعية والثقافية بوعي ديمقراطي غير تفكيكي وغير عنفي مدمر.